قدرات الأمم ودعواتها

جون كيلسي *

تأتي هذه المقالة في نطاق مشاركتي في منتدى مالطا وأود أن أتحدث بعض الشيء عنه. تلقيت وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001م دعوة من رئيس معهد القيم الأمريكية ديفيد بلانكهورن للمشاركة في صياغة بيان أصبح يدعى فيما بعد (من أجل ماذا نحارب؟) وقد وقّع على هذا البيان 60 مثقفا أمريكيا تحدثوا عن الرد الأمريكي على الهجمات على نيويورك وواشنطن واتباع مقياس تقليد الحرب العادلة. فبالنسبة للأمريكيين شأنهم في ذلك شأن الكثير من الأوروبيين فإن تقليد الحرب العادلة يمثل الحكمة الجماعية للأجيال فيما يخص قواعد القتال الشريف. وبهذا المعنى تعتبر مَناظرَةً لأحكام الجهاد. ونحاجج برسالتنا بأن هؤلاء الذين قاموا بهجمات الحادي عشر من سبتمبر قد انتهكوا هذا الجانب النبيل من التقليد الإسلامي. ومن وجهة نظرنا فإن هذه الحقيقة لم تخفف من استحقاقات وقيمة الإسلام, وفي الواقع كان أملنا أن يقوم المسلمون حول العالم بقراءة رسالتنا وينضمون إلينا في مقاومة دعاوى من يَسمَّون (بالجهاديين) أو (الإسلاميين)، مدركين أن برنامجهم يشكل تهديدا للناس في كل مكان.

وفي ظل هذا، فنحن كنا وما زلنا ممتنين للمسلمين وغيرهم الذين استجابوا لرسالتنا. وحتى في المناحي التي لا نتفق فيها، يبقى من المهم أن نواصل التحادث وأن نستمع ونتعلم من بعضنا البعض. وحيث أن التحادث استمر على مدى السنوات القليلة الماضية، وبخاصة في منتدى مالطا، فإنني أجد أن هذا الاقتناع يزداد قوة. يجب أن نتعلم من بعضنا البعض وأن نحاول بناء جسور التفاهم. ويتعين علينا أن نفعل ذلك حتى خلال حربنا ضد هؤلاء الذين قد يستخدمون السلاح دون محاولة منهم للتفريق بين العسكريين والمدنيين.

وأود أن أخوض في موضوع يشير في تقديري إلى طريق نستطيع من خلاله أن نبني الجسور، وهو موضوع قدرات ودعوات الأمم، أو فكرة أن كل واحد من المجتمعات الدينية وكل أمة أو دولة لديها قدرات فطرية ودعوات فريدة لكي تتقاسمها. وللتعبير بطريقة أخرى، أود أن أزعم بأن المسيحية والإسلام وأيضا اليهودية تقدم قدرات فريدة للإنسانية، وأود أن أقترح أيضا بأن لدى الولايات المتحدة وسلطنة عمان إسهامات فريدة لكي تقدمانها.

إنني رجل متدين وعضو في الكنيسة البروستانتية في الولايات المتحدة الأمريكية. وكان لي خلال مسيرتي العلمية الشرف لدراسة الإسلام وتدريسه وكتابة بعض الموضوعات عنه. وبناء عليه فقد تجلى دوري في الكثير من المرات في شرح الإسلام للجماهير الأمريكية وغالبيتهم من المسيحيين مع وجود اليهود وغيرهم. وعندما أفعل ذلك أحاول أن

أتكلم عن هذه الأديان كنماذج مميزة تشهد على فكرة أننا جميعا من مخلوقات الله الواحد، خالق السموات والأرض وبناءً على ذلك لدينا مسؤوليات تجاه هذا الإله، وتجاه بعضنا بعضاً، من أجل الانتفاع بهذا العالم الذي حبانا الله إياه. ومن وجهة نظري فإن اليهودية والمسيحية والإسلام يساهم كل منها في نموذج شهادة جميل، إذ أن كلاً منها يعلمنا شيئا مهما عن صفات الوجود الإنساني المسؤول.

طُلِبَ مني قبل بضعة سنين أن أتحدث في مدينة جاكسونفيل في ولاية فلوريدا في المناسبة الأولى للمشاركة العامة لأعضاء المركز الإسلامي لشمال فلوريدا لرابطة محلية لرجال الدين. ومدينة جاكسونفيل هي إحدى أكبر مدن ساحل فلوريدا على المحيط الأطلسي، ويبلغ عدد سكانها قرابة مليون نسمة وهي أكبر مساحة من أي مدينة في الولايات المتحدة. كما أنها بلد أكبر تجمع لرجال البحرية الأمريكية في البلاد. أما الجالية الإسلامية فيها فهي صغيرة ولكنها آخذة في النمو والتزايد، وتعتبر عضويتها ذات أهمية رئيسة إذ أنها تتكون من الأطباء والمهندسين وغيرهم من المهنيين وجميعهم ذوو مكانة بارزة تمكنهم من تقديم مساهمة جليلة في الحياة الأمريكية. لقد اخترت أن أتحدث في نموذج الشاهد في اليهودية والمسيحية والإسلام وفي الطرق التي يسهم فيها كل دين من هذه الأديان بشيء فريد، بشيء يحتاج البشر لفهمه. وفي تلك المناسبة وكما أنا الآن وجدت نفسي أفكر في نصين أحدهما من الإنجيل والثاني من القرآن الكريم، ونقرأ في الإنجيل:

(الله الذي خلق الدنيا وكل ما فيها، هو رب السموات والأرض، لا يعيش في معابد من صنع البشر ولا يتلقى الخدمة من أياد بشرية, وعليه فهو لا يحتاج لأي شيء إذ أنه هو الذي يهب الحياة والعيش وكل الأشياء لكل المخلوقات. خلق كل الأمم من أب واحد ليسكنوا الأرض بأسرها وهو الذي قدر فترة بقائها وحدود الأماكن التي سيعيشون فيها لكي يبحثوا عن الله ويتلمسون طريقهم نحوه ويجدونه وعليه فهو ليس بعيدا عن أي أحد منا: لأننا نعيش فيه ونتحرك فيه ونستمد وجودنا منه).(الإصحاح 17، 24-28)

وفي الثانية نقرأ في القرآن الكريم قول الله -تعالى- في سورة الحجرات الآية 13: (يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير).

إنني أؤمن كما تؤمنون بأن الله هو الرب وأن لا شيء يحدث إلا بإرادته. وبناء عليه قمت بحث الناس في جاكسونفيل أن يدركوا بأنهم جميعا من يهود ومسيحيين ومسلمين قد اجتمعوا في هذه المدينة العظيمة لكي يقدموا قدراتهم لبعضهم بعضا وللمدينة وللأمة بمجملها. ما هي هذه القدرات؟ في تقديري أن اليهودية تقدم تذكيرا بأهمية الانتماء، طرق احتياج البشر لولاء ودعم المجتمع. لا أحد منا وحيد بالفعل، نحن أفراد عائلة، مجتمعات وأمم. وقد بنى اليهود في أمريكا على هذه النقطة لكي يسهموا في النضال الأمريكي من أجل العدل، ومثال ذلك الاستفادة الكبيرة لحركة تحقيق المساواة للسود من المساهمة اليهودية.

وبنفس الطريقة تقدم المسيحية رسالة أمل، تقوم على فكرة حب الله الكبير لعباده. إلى أي مدى يمتد حب الله؟ فوفقاً للإنجيل فإن حب الله يعبر عن ذخيرة من الصبر والثبات قد لا يستطيع البشر تصورها. ولا ريب أن حب الله يقهر التمرد والمقاومة البشرية ويعتقنا من كبريائنا وأنانيتنا.

وأخيرا, الإسلام الذي يقدم لنا رسالة الكرامة التي تتحقق عندما يدرك البشر بأنهم مخلوقات الله وينظمون حياتهم ضمن الحدود التي وضعها الله -تعالى-. فقبل الحادي عشر من سبتمبر لم يكن الأمريكيون يعرفون إلا القليل عن الإسلام. ولكن الأغلبية كانوا قد قرؤوا أو سمعوا قصة مالكولم إكس، وكانت قصة حياة هذا الرجل عن الطريقة التي أدى فيها الانضباط في الإسلام إلى تحرير رجل من الظلم. وأعطاه رؤية تساوي البشر فيما يخص مسؤولياتهم لسلوك الطريق القويم. وبهذه الطريقة فهموا الأسلوب الذي يعلمنا الإسلام فيه الكرامة التي ترافق انضباط الحياة الشخصية المنظمة.

لقد أدليت بهذا الحديث في جاكسونفيل قبل الحادي عشر من سبتمبر 2001م ، ولكن الأمور أصبحت أكثر تعقيدا الآن. ففي كل مرة يستمع فيها الأمريكيون لبيانات أسامة بن لادن أو أيمن الظواهري أو غيرهما يبلغون بأن الأمريكيين هم أهداف خاصة، ولا ريب أن هؤلاء المتحدثين لا يمثلون كل المسلمين، ولكنهم يدَّعون ذلك. ويتعين على من يريد تذكير الأمريكيين بمساهمات الإسلام أن يبذل جهدا شاقا في هذا السبيل. ولا ريب أيضا أنه ومنذ الحادي عشر من سبتمبر ارتفعت أصوات المسيحيين البروتستانت, وللعلم فإن الكثير منهم قلقون ويميلون للشك والارتياب من جانب الإسلام. وأرى أنه من الإنصاف القول بأن خطابات الجهاديين والمسيحيين المتشددين تغذي بعضها بعضا. والتهم المضادة تدور بشكل لولبي صانعة الانطباع عن الاقتتال بين الأديان. فعندما يتحدث الظواهري أو ابن لادن عن التحالف بين اليهود والصليبيين فإنما يقصدان تكريس هذا الانطباع. وبالمثل عندما يقوم القادة البارزون المتشددون في الولايات المتحدة بوصف الإسلام بالشرير والمضلل. وفي أي من الحالتين فإن النتيجة المنطقية تتمثل في أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش في عالم متصف بتنوع الأديان. والفكرة هي أن العالم يجب أن يكون خاضعا للسيطرة الإسلامية أو المسيحية. ولا مجال لديهم لقبول فكرة أن لدينا قدرات يجب أن نتبادلها مع بعضنا البعض. وإذا كان الأمر كذلك فلماذا يؤكد القرآن والإنجيل أن اختلاف الأمم والشعوب يأتي من الله -تعالى- ؟ إنني أعتقد أن السبب يعود لكون الجهاديين والصليبيين على خطأ.

والآن إذا كان لكل دين قدرات مختلفة ويستفيد البشر منها فماذا عن المجتمعات السياسية التي نسميها الأمم والدول؟

إننا في أمريكا نثمن الحرية، وقد أعلن الرئيس بوش عند بداية فترة رئاسته الثانية في يناير 2005م بأن الحرية ليست شيئا يتبادله البشر، إنها هبة الله لكل إنسان ونحن مدعوون للاعتراف بذلك واحترامه. وبإعلانه هذا سجل نقطة وافق عليها معظم الأمريكيين,

وإضافة إلى ذلك بيّن الرئيس بوضوح الإحساس الأمريكي بخصوص هبتنا للعالم: وهي كما وضعها ليبرتي بيل، إعلان الحرية, في سائر أرجاء الأرض لكل ساكني هذا الكوكب. وبالنسبة للأمريكيين فإن الحرية ليست شيء يكتسبه الناس بل هي شيء يملكه كل فرد بصفته إنساناً.

وفي الوقت ذاته، يبدو جليا أن الاعتراف بحق الناس في الحرية واحترامها ليس بالأمر السهل. إنه أمر يحتاج إلى النضال من أجله. وما تاريخ الولايات المتحدة إلا قصة شعب يكافح ويبذل نفسه حيث أنه يواجه تحديا في نشر رؤيته للحرية. جاء أجدادي إلى أمريكا في سنوات 1700، كانوا فقراء طردوا من منازلهم في جنوب أسكتلنده حيث كانوا مزارعين يستأجرون الأرض. وعندما قام إقطاعيو انجلترا وأسكتلنده بإعادة تنظيم ملكية الأراضي تم طرد الكثير من أمثال هؤلاء المزارعين الفقراء. لجأ أجدادي أولا إلى أيرلندة ولكن الأيرلنديين كانوا فقراء مثلهم، وبالنهاية جاءوا إلى أمريكا - إلى العالم الجديد، حيث كانت الفرص بدون حدود. وعنت الحرية لهم امتلاك أرضهم الخاصة بهم لكي يزرعوها ويعتاشوا هم وعائلاتهم من منتوجها، ولكي يعبدوا الله كما يرون ويعتقدون ويأملون أن يكون أولادهم أحسن حالا منهم.

****

*) أستاذ الأخلاقيات في جامعة فلوريدا.